دمية سوسن الباسمة

قصة

بقلم خلدون الشمعة

قبل دقائق فقط ... لم يكن ثمة ما يثيرها على الاطلاق .

ولفترة محدودة جدا ، استطاعت ان تبتسم بصورة تحمل لونا من العادة المزمنة ، لقد اذهلها الاكتشاف المفاجيء ، ان تكتشف فعلا خلو الغرفة الملاصقة للشرفة ، من سيدتها « منور » ذات العينين اللتين لاتكفان قط عن الدوران .

ولم يكن الامر لسبب ما ، كان لمجرد خوف اخذ يستيقظ بالتدريج حاملا معه كل الخفقات الوردية المخبوءة تتردد في صدرها برتابة مخيفة ، كأنها عصافير دورية تجابه ريحا شتائية عن قرب ، ولقد حسبت بسبب من حذرها الآخذ بالتزايد ان سيدتها قد تبصر بها في غرفة سوسن المدللة في اية لحظة . وعندها فقط ، لن تستطيع ان تتسلل على رؤوس اصابعها بالخوف والحذر المعهودين ، لتملأ عينيها الدامعتين بصورة الدمية الواقفة على مكان عال .

ـ انت نائمة ؟..

أرادت ان تقول ذلك لسوسن ذات الاعوام الخمسة ، فتأخذ حذرها فيما اذا كانت سوسن مستطيعة ان تلمح شيئا ، ان تبصر مثلا بقمطتها الصغيرة البيضاء .

وخلال لحظات قصيرة كانت تستعيد صورة سيدتها ، فبلعت ريقها ، وخبأت يديها خلف ظهرها ثم قالت بصوت غير مسموع ! ـ انها لن تراني.

وتساءلت : ـ هل تحكي اللعبة حقا ؟.. وآلمها انها لن تستطيع تقبيلها من فمها الاحمر لانها واقفة في مكان عال جدا ، وربما ضربتها سيدتها اذا رأتها تفعل ذلك . حتى ان عينيها امتلأتا بالدموع ، كل عين تشبه نجمة مذهبة تنقط بقطرات مالحة الطعم على وجهها المدور ، تغسله وتصل الى حلقها الصغير ثم يتسرب بعضها الى الثوب الذي تحب ، المزركش بالوان مضيئة كذيل الطاووس . وثمة مايجعل فمها النائم يرتجف وقت كانت تحاول ان تتلمس شعر الدمية ذا الخصل الطويلة المحببة ، ولولا ان عينيها قد عكستا طفولة غير محدودة ، اذن لبدت وكأنها تخطت سبعة اعوام بقليل .

ـ هل تجيئين معي ؟.. خطر ببالها ان تخاطب الدمية كذلك ، لكنها لم تفعل ، بل نظرت الى سوسن ابنة سيدتها النائمة قليلا ، ومن ثم عادت الى التحديق بالدمية دون ملل كأنها تنظر الى دجاجتها الصغيرة الحمراء التي خلفتها في القرية ذات يوم . فتثيرها عيناها المصنوعتان من الخرز الازرق ، تغمضان وتفتحان ، حتى لقد تصورت ان الدمية ربما بكت في اية لحظة . وكانت حقا دمية متقنة الصنع ، عروسا حقيقية من الخشب الجميل ، لها ضفائر مشوبة بشقرة باهتة تمنت لو استطاعت الوصول اليها لتتلمسها بيديها الممدودتين .

كل هذا كان شيئا فشيئا يستثير الرغبة القديمة التي حببت اليها ذات مرة ان تمتلك تلك الدمية او اي شيء اخر مماثل . وفي الوقت نفسه يوقظ ذكرى ابيها الذي وعد بالمجيء في الصباح الباكر ، اذ ستعانقه وتقبل يده ، ثم تسأل عن دجاجتها الحمراء .. هل كبرت ؟.. وتطلب منه ان يشتري لها لعبة تشبه لعبة سوسن . وستقول انها مشتاقة كثيرا الى جدها الكبير ، مشتاقة الى امها اكثر من دجاجتها وحتى اكثر من ابيها نفسه ، فلماذا ياترى تأخر ؟!..

وتسرع الى الشرفة من جديد ، وتتمطى بجسدها المتعب فوق الحاجز: هه .. هاهو جاء وعلى رأسه الكوفية والعقال . لكن الرجل لم يتوقف، نظر خلفه قليلا ثم تابع مسرعا يضحك ، فعجبت لامره بمقدار ماحزنت من انه لم يكن أباها الذي تترقبه .

كان الوقت بعد الظهيرة ، وكان هناك مايشبه الظل الخفيف مرسوما على الارض بدقة .. تماما كظل جني قصير القامة . وفكرت ان تسأل سيدتها « منور » : لماذا تأخر ؟.. وبالطبع لم تسأل . ولكنها لاتتصور انه يمكن ان يتأخر الى هذا الحد ، هل ستنتظر طويلا ؟..

وارهفت اذنيها تحتضن بذراعيها الحاجز الحديدي ، وقالت : « انا فرحانة » .. ثم اضافت : « اكثر من سوسن » ونسيت انها كانت تبكي قبل دقائق ، فضحكت بصوت عال كما يفعل الكبار ، واحبت ان تتذوق شيئا ، فليتها تضع لسانها فوق الحاجز الحديدي وتذوق طعمه هكذا : تلحس الحديد وتشعر بسخونة لطيفة ولذيذة ، وليتها اشترت قطعة من « غزل البنات » اذن لكان لها طعمها الحلو لوقت قصير ، تضعها في الفم فتذوب كما لو لم تكن قبل لحظات .

كانت تترقب بحذر ، ربما لانها ماتزال تدخر أملا ما . وكان لها قلب يبدأ بالخفقان وقت تسمع صوتا ، دون ان يمنحها فرصة التمييز بين صوت واخر . واذ توقفت عن الحركة بعض الشيء ، سمعت رنين الجرس ذي الدقات الرتيبة الخاطفة ، سمعت الصوت بوضوح . ولم تدر ماذا تفعل !..

لم تكن ليوقفها شيء على الاطلاق ، دفعت برأسها السعيد الى الوراء وشعرت بخفقة تماما في الصدر . ومر في خيالها شريط مبهم الملامح كل صورة ترسم جزءا من وجه ابيها ينضاف الى جزء ثان دون ان ينفع الجهد المبذول في رسم ملامحه .

وتسرع مثل قطة مذعورة الى الباب لتفتحه ، تسمع خطواته تتصاعد بشكل مغاير للعادة ، كانت بطيئة بعض الشيء ، وكان وجهها يودع لونه الزنبقي ليصطبغ بآخر ساخن ومورد . فتستمر في التحديق من اعلى الدرج ، تهبط اليه وهي تبكي ، حتى لقد انهالت تزرع وجهه بالقبلات الممتزجة بشيء ندي كالدموع . فلا يشعر الرجل بشعور غير عادي ، وانما تمنحه لهفة ابنته ، احساسا بالطمأنينة يفوق كل حد . فيتذكر ان عليه فقط ان يكون قاسيا دون اندفاع ، ان يتقن دوره القديم كما يفعل في كل مرة .

قال الرجل فجأة :

ـ لن اهتم ، لتبك ماتشاء .

دون ان يسمع احدا ، واهتز جذعه كخصل من الصفصاف تنتشر في الريح .

قالت المرأة ، سيدتها منور :

ـ عيب ياحبيبتي ، صرت كبيرة ..

بصوت اكسبته نبرة تأنيب .

قال الرجل :

ـ حتى لو بكت سنة ، ستسكت .

تساءلت المرأة :

ـ ولماذا تبكي ؟.

وكان وجه الصغيرة تماما مثل مرآة زرقاء . كان يحمل اللون الفطري من الخوف ، وكان ثمة في عينيها نجمتان تحترقان . وانحنت على الارض كغصن شجرة مكسور .

وقال الرجل :

ـ سأذهب .

باحثا عن شيء في وجه الصغيرة ، لايحمل شعورا مبالغا فيه .وكانت قسماته متشربة بموسيقى الغضب ، فهمست المرأة تبتسم :

ـ انتظر أبو أمينة ، مستعجل ؟..

ولكن الصغيرة لم تصمت . كان بكاؤها ينتشر كدم نازف على دفعات، وكانت ابدا تردد من وراء الدموع انها تريد لعبة مثل التي تحب .

وحسمت المرأة الموقف ، قالت :

ـ عندي لها واحدة .

واضافت :

ـ مثل لعبة سوسن .

ولامر ما .. لم تكف الصغيرة عن البكاء . ربما لتثبت انها لن تستهلك الفرح الذي قبلها للتو من بين عينيها ، او ربما لتطمئن الى ان شيئا في الامر لم يتبدل . ولكنها لم تتفوه بكلمة .

قال الرجل :

ـ لن تأخذ شيئا .. ساذهب .

بعناد ، كأنما هو يؤثر ان يمارس دورا غير مستحب .

قالت المرأة :

ـ ولكنها اذن لن تكف عن البكاء .

قال الرجل :

ـ فليكن ؟..

وصمت فجأة ، كما بدأ . ينظر في عينيها باصرار .

كان الامر محيرا فعلا ، واحب في تلك اللحظة ان يغذي الموقف بكل ماتفيض به نفسه من قسوة فطرية ينضاف اليها قدر اخر من الحقد المكتسب بفعل التكرار ، قال :

ـ انا اعرف دواءك يابنت .

وانهال على كتفيها بلطمة مسرعة متانية ، جعلت العقد الزجاجي الموضوع على رقبتها النحيلة تنفرط حباته الكبيرة الزرقاء ، هي تقفز على الارض ولم يقدر على ان يعاود ذلك قط ، لقد منحه ذلك العمل الرديء فرصة تمييز الموقف على حقيقته ، وبطريقة ما .. تطامن برأسه مستندا الى الجدار . وصرخت المرأة :

ـ بس يا أخي .. حرام عليك !..

على نحو جعلها تتجاوز مقاطع الحروف . واذ شعرت بانها قد تورطت في مشكلة مزمنة ، وانها تمتهن الدور الاكثر هدوءا ، واهمها حنق مفاجيء من جديد :

ـ اخذ اجر سنة ، فلماذا لاينسحب اذن ؟..

ولم تصمت الصغيرة بعد رحيله . لقد اكتشفت ان عينيه الغائمتين اللتين طالما انتظرتهما الدقائق والايام ، قد بدتا في تلك اللحظة اشد انطفاء من قبل ، بحيث انهما ماثلتين في خيالها لا تبرحانه قط . واكتسبت بالتالي كل الاشياء الجائمة من حولها لونا من الحزن الغائم غير المرئي ، يملأ خيالها مرة بعد اخرى بلا توقف .

وكانت تجمع حبات العقد الزرقاء المبعثرة ، حين وصل ابوها نهاية الدرج كعادته ، دون ان تستطيع دموعها ان تستبقيه دقيقة واحدة . ولكن خطواته المتانية .. تلك التي لم تعد تسمع على الاطلاق ، قطعت في نفسها كل أمل .

وامتلأ حلق الصغيرة بالقطرات المالحة الطعم ، ليس لانها تريد لعبة مثل التي تملك سوسن ، وانما لانها ايضا احست بانها سلبت الرجل الذي عليها ان تبكي فيسأل عن السبب . وايقنت انها ستخاف الليلة كثيرا ـ كعادتها ـ اذ تنام وحدها في الغرفة القديمة الواطئة ، ولم تدر ماذا تفعل .

كان المساء يضفي مسحة من الكآبة المخيفة ، وكانت قد اقعت على الارض ، لصق الباب .. كما يفعل صغار الارانب ، تحدق ببلاهة مشوبة بالترقب ، وتساءلت في نغمة حزينة :

ـ كيف ستكون اللعبة ياترى ؟..

ومدت برأسها الملفوف بقمطة بيضاء ، وكانت تضع يدها تحت ذقنها الشاحبة .. تنتظر دون ان تجرؤ على الذهاب الى غرفة سيدتها « منور» التي قالت قبل لحظات :

ـ انتظري حتى ارجع ..

وتمسك بحبات العقد الزرقاء المفروطة ، تدخلها في الخيط حبة .. حبة . سوف تأتي لها « منور » بلعبة من لعب سوسن بالتأكيد . ولذلك فقد فرحت كثيرا حين تصورت انها ستضم اللعبة الى صدرها تقبلها اكثر من مرة .. وانها لن تنظر الى لعبة سوسن ابدا . لانه ستكون لديها واحدة تغمض عينيها وتفتحهما باستمرار .

وحين جاءت « منور » اخيرا بالدمية التي وعدت ، لم تستطع الصغيرة ان تخفي الخيبة والحنق الجديدين وقد نبتا بغتة ، يتسللان الى اعماقها بالتدريج ، اذ قالت :

ـ ياعيني ما أبشعها ..

ولم تجرؤ ان ترفع صوتها اكثر . لقد تفتحت الغيرة في نفسها كزنبقة وحشية يسري في ساقها الدقيقة سائل كالسم . كان وجهها يتبدل في تموجات من يوخز بشيء حاد ، وكان ثمة شيء اشد من الغيرة ، ينمو بمقدار ماتحدق بالدمية التي جاءت بها « منور » ، الدمية التي بدت هزيلة ساكنة القسمات ، كأنها طفل ميت .

وامسكت الصغيرة بالدمية تضمها الى الصدر ، ثم صرخت بصوت ابح ، وأسرعت تتعثر في مشيتها الى الغرفة القديمة الواطئة .

كان واضحا انها تريد ان تنام فقط . ولو انها لم تشعر وقتئذ بغيرة لا حدود لها من سوسن ، اذن لكان من المألوف جدا ان تستشعر بهجة قصيرة ليس غير .. بهجة لايفسدها ذلك الخوف المختبيء في صدرها، يثور تباعا منذ اول لطمة نالتها من ابيها الذي تمحضه كل الحب .

وضعت رأسها في ظلام الوسادة وهمست : « سانام » .. وتذكرت انها اذ تفعل ذلك تنام دون عشاء ، فاضافت بحنق انها ليست جائعة .وانحلت عقدة القمطة البيضاء ، فانتثر شعرها المقصوص حديثا كنابض مشدود، وكانت تقبض على الدمية الباردة دون ادنى مشاركة ، كانت تغط بالنوم هي ودميتها ، كشيئين غاليين منفصلين عن العالم .

وتدفقت الظلمة العميقة فجأة .. أشبه بشلال غزير من المداد الاسود، يغمر دمشق ذات القلب الدائم الخفقان ، وكانت موسيقى الليل تخفت وتتعالى بفوضى محببة ، وأخذت الصغيرة تحلم وهي تتكلم بصوت عال .

كان ثمة أمنية حارة تتململ في اعماقها ، بحيث كانت تحس بالفرح لحظة ، وبالكآبة لحظة اخرى . ودون ان تشعر نهضت نائمة مطبقة الاهداب ، ثم دقت الارض بقدميها في نزق وعناد معهودين ، ثم سارت الى البهو الطويل الموصل الى غرفة سوسن ، كالسنونو بحذر عارم ، تضم دميتها تماما الى موضع القلب .

واتخذت خطواتها ايقاعا محببا ، كأنما هي تعدو برتابة تحت المطر . وكان النور الضئيل المنبعث من منتصف البهو ، يكشف عن وجه الدمية العمياء بوضوح . وبدت القسمات اشبه بقسمات طفل ميت .. ولم يكن ثمة في الوجه عينان تغمضان او تفتحان .

ورفعت الصغيرة بدميتها العمياء الميتة ، تطوحها على الارض القاسية بحنق : انها ـ حقا ـ لاتغار من سوسن ، لاتريد مثل لعبة سوسن على الاطلاق .

واذ تعثرت فهوت على الارض لصق دميتها الميتة ، شعرت بوجه ابيها ينفذ من قلب الظلمة .. وكان غائما منشنجا ، وكانت حدقتاه غارقتين بموسيقى مطفأة ، وارتفعت ذراعه المديدة كالظل ، تنهال بلطمة مسرعة متانية ، بعثرت حبات العقد الزجاجي الكبيرة الزرقاء ، فاقعت على الارض كما يفعل صغار الارانب ، نائمة .. مطبقة الاهداب ، ثم عادت عيناها الشبيهتان بنجمتين مذهبتين تحترقان بالدموع من جديد .

دمشق — خلدون الشمعة